أحاديث إصلاح القلوب

(٣٧)

جهاد النفس

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

عن فَضَالَة بْن عُبَيْدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ». رواه أحمد

إن من المطالب العظيمة في حياة المسلم العملَ على مجاهدة نفسه ومداواتها وأطرها على الحق وإلزامها سبيل الاستقامة، وسؤالَ الله دوما المعونة على ذلك.

والأصل في هذا الباب قول الله تبارك وتعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ } [الحشر:١٨]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون".

والناس مع النفس على قسمين :

١- قسمٌ يجاهد نفسه ويعاتبها لتنهض إلى معالي الأمور وفضائل الآداب وكوامل الأخلاق .

٢- وقسمٌ أهملها فانغمست في الرذائل وتلوثت بارتكاب المعاصي والآثام .

وقد ذكر الله هذين القسمين في قوله سبحانه : {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا }[الشمس:٩-١٠] ؛ زكاها بأن طهَّرها ونقاها من الكفر والمعاصي والآثام وجاهدها على البعد عن ذلك كله وأصلحها بالطاعات والأعمال الصالحات، و{دَسَّاهَا} : بأن حقرها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، وأطاعها فيما تدعوه إليه من أمورٍ تسخط الله تبارك وتعالى وتوجب عقابه .

ثم إن الله عز وجل قد ركّب في الإنسان نفسين : نفساً أمارةً بالسوء ، ونفساً مطمئنة ؛ وهما متعاديتان ، النفس الأمارة بالسوء معادية للنفس المطمئنة ، والنفس المطمئنة معادية للنفس الأمارة بالسوء ، وكل ما خفَّ على هذه ثقل على الأخرى ؛ فالأمور التي تريدها النفسُ الأمارة تأباها النفس المطمئنة ، والأمور التي تريدها النفس المطمئنة تأباها النفس الأمارة ، وكلما التذَّت إحداهما بشيء تألمت الأخرى به ؛ فمثلا : إذا التذت النفس

الأمارة بفعل معصية تألمت النفس المطمئنة لفعلها ، ولهذا فإن النفس الأمارة بالسوء أشقُّ شيءٍ عليها فعل الطاعات والقيام بالأمور التي تُرضي الله سبحانه وتعالى ، والنفس المطمئنة أشقُّ شيءٍ عليها فعل المعاصي والآثام ، وفي الإنسان نفس أمارةٌ بالسوء كما يدل لذلك قول الله عز وجل فيما حكاه عن امرأة العزيز { وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [يوسف:٥٣] أي تأمر صاحبها بكل سوءٍ وتدعوه إلى المهالك وتهديه إلى كل قبيح ، هذه طبيعتها وسجيتها ، إلا من وفقه الله وثبته وأعانه فسلِم منها ، ولهذا قال: {إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ} أي فنجا من غوائل نفسه وشرورها ، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى : {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَـكِنّ اللّهَ يُزَكّي مَن يَشَآءُ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [النور:٢١] وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم وأكرم خلقه {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء:٧٤] وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في خطبة الحاجة ويعلِّم أصحابه أن يقولوا : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا))، وذكرُ سيئات العمل بعد شر النفس لأن سيئات العمل فرعٌ عن شر النفس ، فإذا خبُثت النفس وشانت دعت صاحبها إلى الأعمال السيئة والأقوال القبيحة ودفعته إلى المهالك ، ولا يسلَم منها إلا إذا سلَّمه

الله تبارك وتعالى ونجَّاه من غوائلها .

وإذا علم المسلم أن النفس الأمارة بالسوء هذا شأنها وهذه صفتها وأنها تدعو إلى المعاصي وتُبعد عن الطاعات وتوهِّي الإيمان وتُضعفه لزمه أن يجتهد في مداواتها ومعالجتها ومحاسبتها ومعاتبتها ولومها حتى يسلَم من مغبَّتها المردية وعواقبها الوخيمة ، وذلك بأن يكون خطام نفسه بيده لا أن يجعل الخطام للنفس تقوده لاتباع شهواتها ومراداتها دون مبالاة واكتراث بما يرضي الله أو يسخطه ، ثم لا يزال مطيعـًا لها متَّبعا لها منقاداً لطلباتها حتى توقعه في الردى والمهالك ، فتصبح هي القائد ويصبح هو المقود ، بينما الأصل أن يكون مجاهداً لنفسه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ)) والله تعالى يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت:٦٩] جاهدوا فينا : أي أنفسهم .

قال مالك بن دينار: " رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائداً " .

وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ : إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ ، يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ ،

إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَفْجَأُهُ الشَّيْءَ يُعْجِبُهُ ، فَيَقُولُ : وَاللهِ إِنِّي لَأَشْتَهِيكَ ، وَإِنَّكَ لَمِنْ حَاجَتِي ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا مِنْ صِلَةٍ إِلَيْكَ ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَيَفْرُطُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَقُولُ : مَا أَرَدْتُ إِلَى هَذَا ، مَا لِي وَلِهَذَا ، وَاللهِ لاَ أَعُودُ إِلَى هَذَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أَوْثَقَهُمُ الْقُرْآنُ ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا يَسْعَى فِي فِكَاكِ رَقَبَتِهِ ، لاَ يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللهَ ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي سَمْعِهِ ، فِي بَصَرِهِ ، فِي لِسَانِهِ ، فِي جَوَارِحِهِ ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ

فالنفس تحتاج إلى مجاهدة ومحاسبة، أما إذا تركها تفعل كل ما تشتهيه وتطلبه فإن هذا أضرُّ شيءٍ يكون على الإنسان في دينه ودنياه ، والعاقل الناصح لنفسه هو من يجاهد نفسه على توقي الآثام والبعد عن المعاصي ويجاهدها على فعل الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة والأعمال التي تُرضي الرب تبارك وتعالى . وأعظم معِينٍ للعبد على ذلك أن ينظر ما قدم لغد وهو اليوم الذي يلقى الله فيه ويقف فيه بين يديه ويحاسبه على ما قدَّم في هذه الحياة ، وهذا المعنى مستفاد من الآية المتقدمة {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ } فإذا أخذ نفسه هذا المأخذ وحاسبها هذه المحاسبة وذكَّرها دائماً بغدِه فإنه يسلم بإذن الله من شر نفسه ، فإذا دعته يوماً إلى أمرٍ يسخط الله ويغضبه تبارك وتعالى ذكّرها بقيامها بين

يدي الله ووقوفها أمام الله سبحانه وتعالى ، ذكَّرها بالحساب والجزاء والعقاب والجنة والنار حتى تكُفّ عن دعوته إلى العصيان ، وترتدع وتنزجر وتكف عما تطلبه من الآثام ، وهذا ما يسمى عند أهل العلم بمداواة النفوس أو محاسبة النفوس.

وقد أفرد بعض أهل العلم المتقدمين كابن أبي الدنيا والآجري وغيرهما من أهل العلم كتبًا خاصة في محاسبة النفس وجمعوا فيها في هذا الباب الشريف العظيم نقولا عظيمة عن السلف الصالح.

ولعلنا نقف هنا مع كلماتٍ عظيمة ومواعظ مؤثرة في جهاد النفس ومحاسبتها، للخلفاء الراشدين الأربعة أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلي رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين، خيرِ أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، جاءت هذه المواعظ في خطبٍ لهم بليغة ووعظٍ مؤثر.

خطب أبو بكر رضي الله عنه فقال : « أَمَّا بَعْدُ ، أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَأَنْ تُثْنُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَتَخْلِطُوا الرَّغْبَةَ بِالرَّهْبَةِ ، وَتَجْمَعُوا الْإِلْحَاحَ بِالْمَسْأَلَةِ فَإِنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْلِهِ فَقَالَ: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠] ، ثُمَّ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ اللهَ قَدِ ارْتَهَنَ بِحَقِّهِ أَنْفُسَكُمْ ، وَأَخَذَ عَلَى ذَلِكَ مَوَاثِيقَكُمْ أَفَاشْتَرَى مِنْكُمُ الْقَلِيلَ الْفَانِيَ بِالْكَثِيرِ الْبَاقِي وَهَذَا كِتَابُ اللهِ فِيكُمْ ، لَا تَفْنَى

عَجَائِبُهُ ، وَلَا يُطْفَأُ نُورُهُ ؛ فَصَدِّقُوا قَوْلَهُ وَانْتَصِحُوا كِتَابَهُ ، وَاسْتَضِيئُوا مِنْهُ لِيَوْمِ الظُّلْمَةِ وَإِنَّمَا خَلَقَكُمْ لِعِبَادَتِهِ وَوَكَّلَ بِكُمُ الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ثُمَّ اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْقَضِيَ الْآجَالُ وَأَنْتُمْ فِي عَمَلِ اللهِ فَافْعَلُوا ، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ ، فَسَابِقُوا فِي مُهَلِ آجَالِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ آجَالُكُمْ فَيُرَدَّكُمْ إِلَى أَسْوَأِ أَعْمَالِكُمْ ، فَإِنَّ أَقْوَامًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَأَنْهَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ، فَالْوَحَا الْوَحَا ، ثم النَّجَا النَّجَا ، فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ طَالِبًا حَثِيثًا مَرُّهُ سَرِيعًا » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته : «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ ، يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ» .

وقال عثمان ابن عفان رضي الله عنه في خطبته : «ابْنَ آدَمَ ؛ اعْلَمْ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكَ لَمْ يَزَلْ يُخْلِفُكَ وَيَتَخَطَّى إِلَى غَيْرِكَ مُذْ أَنْتَ فِي الدُّنْيَا ، وَكَأَنَّهُ قَدْ تَخَطَّى غَيْرَكَ إِلَيْكَ وَقَصَدَكَ ؛ فَخُذْ حِذْرَكَ وَاسْتَعِدَّ لَهُ وَلَا تَغْفَلْ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفَلُ عَنْكَ ، وَاعْلَمِ ابْنَ آدَمَ إِنْ غَفِلْتَ عَنْ نَفْسِكَ وَلَمْ تَسْتَعِدَّ لَهَا ؛ لَمْ يَسْتَعِدَّ لَهَا غَيْرُكَ، وَلَا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلَا تَكِلْهَا إِلَى غَيْرِكَ» .

وقال رضي الله عنه في آخر خطبةٍ خطبها في جماعة : « إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ لَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا ، إِنَّمَا الدُّنْيَا تَفْنَى ، وَالْآخِرَةُ تَبْقَى ، لَا تُبْطِرْكُمُ الْفَانِيَةُ ، وَلَا تُشْغِلْكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ، آثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، اتَّقُوا اللهَ فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ ، وَوَسِيلَةٌ مِنْ عِنْدِهِ ، وَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ الْغِيَرَ ، وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ ، لَا تَصِيرُوا أَحْزَابًا ، {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٣-١٤٠] » .

وخطب علي ابن أبي طالب رضي الله عنه الناس بالكوفة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ طُولُ الْأَمَلِ ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى ، فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيُضِلُّ عَنِ الْحَقِّ ، أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً ، وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ» .

ألا ما أعظمها من وصايا، فحريٌّ بكل مؤمن حريصٍ على سعادة نفسه

ونجاتها أن يجاهد نفسه ويحاسبها قبل أن يحاسبه الله ، وأن يزن أعماله قبل أن يقف بين يديه جل في علاه ، والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.